مفتتح

# الإلحادُ في أدلَّته المُخادعة

رئيس التحرير

**د. محمد محمود مرتضى**

يُعـرَّف الإلحاد المعاصر  بأنه تيارٌ فكريٌّ يُنكر وجود الخالق، ويَعُدُّ المادَّة أزليَّةً، وأنّ الحقائق العلميَّة تؤيّد معتقدهم.

ويمكـن القـول: إنّ الإلحادَ بمعنى إنكار وجود الله, تعالى, لم يكـن ظاهرةً بارزةً في التاريخ القديم، بل ما كان سـائداً هو العكس تماماً، أعني الشركَ والاعتقادَ بتعدُّد الآلهة، وأنَّ المنكرين للخالق كانوا قلّة قليلة من الأفراد، ولم يشكّلوا جماعة يمكن الاعتدادُ بها.

على أنَّ انتشار الشرك بدل الإلحاد، يمكن ردّه إلى تنافر الإلحاد مع الفطرة السليمة، فيما الشرك يعود إلى تزاحم الشّبهات عند الإنسـان، والخلط بين ما هو إلهـيٌّ وما هو ليس كذلك. فضلاً عن أنَّ كثيراً من الدراسات الغربيَّة التي بحثت في الأديان القديمة لم تفرّق، وربما تعمَّدت عدم التفريـق، فيما فكّكته من نصوص، أو حلَّلته من رسـوم، بين لفظَيٍّ: إله ( بمعنى الخالق) وبين ربّ ( بمعنـى المدبر). ولا أعتقـد أنّنا بحاجة للعودة إلى النصوص الكثـيرة للديانات القديمة التي تحدثت عن إله خالق واحد، جعلته على رأس هرم«الآلهة»، فيما جعلت للظواهر الطبيعيّة وعناصر القوة فيها «آلهة»؛ وإنْ كنا نعتقد أنَّ هؤلاء أرادوا بها الأرباب لا الآلهة. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. [الزمـر: 38]. كما أشـار القرآن إلى نمـاذج من هؤلاء المشركين من طائفـة الدُّهريِّيْن، وسـجّل صوراً من جَدَلهم، فقال سـبحانه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 24].

وفي العصر الحديث: بدأ الملحدون الأوائل بتعريف أنفُسهم باستخدام كلمة «مُلحد» في القرن الثامن عشر في عصر التنوير. ويمكن القول: إنّ أوَّل كتابٍ صريحٍ عن الإلحاد كان هو (نظام الطبيعة) للفيلسوف المادي دولباخ Döllbach (ت: 1789). إذْ بدأت ظاهرة الإلحاد تتَّخذ شكلاً أوضح في التفكير الغربيّ, ولا سيَّما في نهاية القرن التاسع عشر، ثم القرن العشرين.

■ ■ ■

على أنَّ الإلحاد، وإنْ لم يكن مسوَّغاً عقلاً، لكنْ ثمّة عوامل عدة أسهمت في ظهوره. فقد ساعدت هيمنة الخرافة والسحر في العصر الوسيط، وكذلك محاكم التفتيش التي أعلنت الكنيسة عن تشكيلها ، في ردَّة فعل عكسية اتجاه الدين. على أنَّنا نعتقد أنَّ هذا الأمر لم يكن ليؤدِّي إلى نشوء تيار إلحاديٍّ كبير، لولا قيام التيَّارات العَلمانية المناوئة للدين بتوظيف الصراع الذي نشب بين الكنيسة والتيَّار العَلمويّ الذي عمد إلى صبِّ الزيت على النار لإقصاء الدين من حياة الناس.

لقد وصل العداءُ والقطيعة بين الكنيسة والعلم إلى ذِروته في القرن التاسع عشر الميلاديِّ، ولاسيَّما، مع تيار الوضعيَّة العَلموية؛ الذي يرى أنَّ العلمَ التجريبيَّ يمكن أنْ يحقِّق للإنسان ما يحتاجه، وحَصَر المعرفة بالعلم التجريبيّ. وقد برز أوجست كونت (Auguste Comte) (ت:1857م) المؤسِّس الأول الوضعيّة المنطقيّة على رأس التيَّار الذي يزعم أن التفسير العلمي يمكن أنْ يحلَّ محلَّ الإيمان بالخالق.

ثم جاء التيَّار الليبراليّ الذي ساهم في رفعً شعار: كلّ إنسانٍ إلهُ نفسه, فلا يُقيم هذا التيَّار أيَّ وزنٍ لشريعة إلهية إذا ما ناقضت أحكام «التصويت الديمقراطيُّ»، من هنا بات الإلحاد مباحاً بل محمياً بحرية الرأي، تمامًا كما سيحصل في مرحلة لاحقة في موضوع الشّذوذ الجنسيّ.

وما بين إضعاف الدين بحجة بعض تصرّفات رجال الكنيسة، وتيّارات عَلمويّة ووضعيّة، قام تيّار جارف في أوروبا باسم «المذهب الإنساني» في عصر النهضة الأوروبيّة، على يد بعض الفلاسفة الذين زعموا أنَّهم يريدون إبراز القيمة الجوهريَّة لحياة الإنسان في الدنيا بعيدًا عن حياته الروحيَّة، أو التطلع الى الحياة الآخرة، في عداء وتحدٍّ واضح للنظرة الدينيّة وخصوصًا الكنسية. لكن هذا التيّار تطوّر في سياق انتشار حركة فلسفات قدّست الإنسان وألّهته، فيما

عمدت إلى نبذ الأديان التي اتّهمتها بأنَّها تفرق بين الناس.

وفي خضم هذه التيَّارات الفلسفيَّة، بدأت تظهر معالم دراسات «علميّة» كان أبرزها نظرية التطوّر، التي اعتبرت أنّ الكائنات الحية في تطوُّرٍ مستمرٍّ مبنيٍّ على أُسس الانتخاب الطبيعيّ وبقاء الأصلح؛ وهكذا تنشأ الأنواع بعضها عن بعضٍ. وفي هذا السياق يأتي النوع الإنساني الذي انحدر من أنواعٍ حيوانيّة. وهي بذلك تنفي عمليّة الخلق عن الله. وتقرّر النظريّة أنّ الحياة وُجِدت على الأرض بالمصادفة. لقد كانت النظرية تمثل باكورة الأعمال التي مهدت الطريق للإلحاد العلميّ من خلال وضع حجر الأساس لإهمال العِلَّية الغائيَّة في الفلسفة الغربيّة (شمس الدين بلوت، دارون ونظرية التطور، ص 14 وما بعدها).

ولم تكن النظريَّات الاقتصاديّة، ولا سيما كتابات كارل ماركس (ت: 1883م) بأفضل حالاً، فقد صبغ الأخير مذهبه بصبغة عقائديَّة، مدعياً أنّ الحياة التي يعيشها الناس تقتصر على الماديَّة، فلا روحٌ، ولا بعثٌ، ولا إلهٌ، ولا حياةٌ أخرى، وأنّ ظهور الأديان كان فعلاً من أفعال الأغنياء ليلبّسوا على الفقراء( البيان الشيوعي، ماركس وإنجلز، ص 10؛ وديورانت، قصة الحضارة، ج38، ص137). فلا غرابة أنْ يكتب أحدهم بأنَّ «الإلحاد جزءٌ طبيعيٌّ من الماركسيّة لا ينفصل عنها» (محمد رشاد دهمش، الفكر الماركسي في ميزان الإسلام، ص 81).

ثم جاء دور النِّسْوية لتدلي بدلوها من خلال نشر فكرٍ هدّامٍ عُمدَتُه تحريض النساء على التحرّر من قيود الزواج، والسعي لتفكيك الأسرة من خلال مزاعم أنّها سجنٌ لهنّ. من الواضح منذ انطلاقتها، أنّ النّسْويّة حركة مناهضةٌ للدِّين، وعلى وجه الخصوص الدين الإسلاميّ، لذلك قالت هيلين غاردنر Helen Gardner: «إنّ موسى أو كونفوشيوس أو محمّدًا أو بولس أو إبراهيم أو بريجهام يونغ يؤكّدون أنّ عقيدتهم جاءت مباشرةً من الله، وأنّه كان على اتصالٍ شخصيٍّ مع أحد هؤلاء الأشخاص المفضّلين أو جميعهم، إنّها حقيقة لا يمكن أنْ يكون لها أيّ سلطةٍ علينا ما لم تكن تعاليمهم منسجمة مع أسمى أفكارنا، وأنبل غايتنا، وأنقى معاني الحياة، فمن منهم يستطيع أنْ يتحمل الاختبار؟ (gardner: Men, women, and goods and other lectures, p15).

وفي العالم العربيّ والإسلاميّ كانت نوال السعداوي (ت: ٢٠٢١م) قد أعلنتها حرباً على الإسلام وثوابته، عندما قالت: «الشرائع المستمدَّة من الأديان كلّها اجتهاداتٌ بشريّةٌ سياسيّةٌ،

فيها مظالم متعددّةٌ خاصّةً للنساء»، وأنّه ينبغي نبذ الشرائع السماويّة والالتزام بما تمليه الشرائع الأرضيّـة المتمثّلة بالاتفاقيات الدولية؛ لأنّها أكثر عدالةً من الشرائع الدينية»( الحوار المتمدن ، العدد: 6848).

■ ■ ■

وبعيداً عن النظريَّات الفلسـفيَّة التي طُرحت وفُسرت عـلى أنّها تتماهى مع الإلحاد، كنظريّة الإرادة الكليّة العمياء لشـوبنهور (ت: 1860م)، الذي سـبَّب موجة من الانتحار بين الشـباب, أو آراء نيتشـه **Nietzsch** (ت: 1900م) وإنـكاره فكرة الألوهيّـة، أو بحثه عن الإله، ثم صرخته الشـهيرة حول موت الإله: «لقد قتلناه، أنا وأنتم.. مات الإلهُ.. ونحن هم الذين قتلناه» (نيتشـه، العلم المرح، ص 132). إضافة إلى فرويد **Freud** (ت: 1939م)، الذي عدَّ الدين مرضًا نفسـيًّا وداءً يعـاني منـه المجتمع، وأنّ فكـرة الله اختراعٌ بشريٌّ منـذ التاريخ القديـم( فرويد، موسى والتوحيد، ص 179م). بعيدًا عن كلِّ هذه التنظيرات التي لن تصمد أمام النقد، فمن الواضح أنَّ نشر الإلحاد في السنوات الأخيرة تقف خلفه آلة إعلاميَّة ضخمة ومقتدرة، ولا يمكن التعامل مع هذه الظاهرة بسطحيّة، أو إهمالها، ولا سيما, إذا ما وضعناها في سياق حملة محمومة تستهدف مجتمعاتنا الإسـلاميّة؛ فتسـعى لتدمير الأسرة والقيم الأخلاقيّة، وتخنيث شـبّاننا، وتحقير عِفَّة نسائنا، وقطع علاقتنا الروحيَّة، وإجراء قطيعة مع كلِّ ما يمكن أنْ يمثِّل عنصرًا فعَّالًا في صمودنا وارتقائنا الحضاريّ، الماديّ والروحيّ.

■ ■ ■

مـن هنا لا يمكن لنا أنْ نسـتخّف بالإلحاد، وبمن يقف خلف محاولـة نشره، نظراً إلى الآثار السلبيّة الكبيرة التي يمكن أنْ يُخلِّفه، ويمكن تعداد أهمها بشكل مختصر:

1. إنّ الانسـان مجبول على السـؤال، وخصوصًا تلك المتعلقة بمصيره ومسيره النهائيّ. ولا شـكّ في أن إجابات هذه الأسـئلة، وما يترتّب عليها من سلوك، ستختلف جذريّاً بين من يؤمن بالله الخالق الحكيم، وبين من لا يؤمن، والنتيجة الحتميّة للإلحاد وقوع الإنسان فريسة العبثيّة والانحدار. وسـيكون الانتحار قويّاً لتلك الفئة. وما مصير إسـماعيل أدهم، وسـارة حجازي،

ببعيد في عالمنا العربيّ والإسلاميّ. أما في الغرب، فقد عبّر ألبير كامو **Albert Camus** (ت: 1960م) عما يختلج في صدر الملحد عدما قال: «لا توجد سوى مشكلة فلسفية واحدة خطيرة، وهي الانتحار. الحُكمُ على ما إذا كانت الحياة تستحقُّ أنْ تُعاش أم لا، هي الإجابة على السؤال الأساسيّ للفلسفة»( كامو، أسطورة سيزيف، ص 11).

إنّ العبثيّة علامةٌ بارزةٌ في الفلسفة الوجوديّة الملحدة، ويمكن رصد معالمها بسهولة، فقد نستعير كلمات جان بول سارتر **Sartre** (ت: 1980م) للتدليل عليها، كشخص قد عاش العبثية: «إنّ كلمة العبثيّة تولد الآن تحت قلمي ... والواقع أنّ كلّ ما استطعت أنْ ألتقطه فيما بعد، تلخّص في هذه العبثيَّة الأساسيَّة»( سارتر، الغثيان، ص 182-183).

2. ثمة كثير من النزوع نحو الشرور عند الملحِد. ويعود سبب ذلك على أساسيٍّ إلى غياب سلطة رقابيّة عليا تطّلع على كلِّ شيء، مما يختلج في ضمير الإنسان، خصوصًا أنَّ الالحاد يترافق مع إنكار وجود عالم آخر حيث الحساب والعقاب. فتنحصر اهتماماته بتلبية احتياجاته الشخصيّة الماديّة ولو على حساب الآخرين، طالما أنَّ المحرك الأساس هو قاعدة البقاء للأصلح والأقوى.

3. ربط المنظِّرون للإلحاد اعتقادهم بمفهوم الحريّة المطلقة، والتي ربطت بدورها بممارسة الشهوات من دون قيود؛ لذلك نرى أنَّ أكثر دعاة الإلحاد، كانوا من دعاة الحريَّة الجنسيّة المطلقة، وقد مثّلت كلمات الملحد لورنس كراوس **Lawrence Krauss** علامة فارقة في المستوى الأخلاقيّ الذي يمكن أنْ ينحدر إليه الملحد عندما زعم في مناظرته مع حمزة تزورتزس، أنْ لاغضاضة في زنا الأخ بأخته.( **Krauss, Incest is not clearly wrong, youtube**).

ولا يعترض زعيم الملاحدة دوكينز **Dawkins** على زنا المحارم واغتصاب الأطفال في تغريدته الشهيرة ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما عدَّ التحرّش الجنسيَّ بالأطفال أمرًا فظيعًا، لكنّ ضرره أقلّ -بزعمه- من الضرر الذي يحدثه تربية الطفل على الدين **huffpost Dawkins, Pedophilia Remarks Provoke Outrage**).

4. كان الإلحاد نتيجة لحصر المعرفة بالمعرفة التجريبيّة. ويبدو لنا أنَّه اتجاه أُريد منه إقصاء المعرفة والأدلَّة العقليَّة على وجود الخالق المدبّر والحكيم. حتى بات الحديث عن وجود الله حديثًا خارج نطاق العلم.

وبعـد، وأمـام هذه المخاطر: هل يمكن لنا أنْ نقف مكتوفي الأيـدي أمام هذا التيَّار المُضلل والمُخادع؟ المُضلل بالادعاء أنَّ على المؤمنين أنْ يقدِّموا دليلاً على وجود الله، فيما المطلوب منهم هم أنْ يقدموا دليلاً على عدم وجوده، طالما أنَّ الميل الفطريَّ للإنسان ينزع بما لا شك فيه إلى الإيمـان، والبراهين العقليّة القطعيَّة تؤيّده؛ والمُخادع عندما يزيف الأبحاث العلميَّة ليدّعي أنَّهـا تقتـضي عدم وجود خالـق؛ إذ من الواضح أنَّ مـن يطلع على ما خطَّتـه أقلام الملحدين، سيخرج بنتيجة مُفادها: أنَّ أبحاثهم العلميَّة تناقض العلم في دلالته القطعيّة على وجود الخالق، فيما مباحثهم الفلسفيَّة التي ينبغي أنْ ترتكز على العقل، تضع نفسها خصيمة له.

مـن هنـا، وفي هذه الظـروف بالـذات جاءت مجلـة «اعتقاد»، لتسـدّ حاجـة ملحّة داخل المجتمعات الإسلاميّة.

ونحن إذْ لا ندَّعي الفرادة، فإننا في الوقت نفسه، نسعى جاهدين إلى الدخول في هذه المواجهة الحاصلة بين تيّار المشـكّكين في مضمون الدراسـات الدينيّة، والتيَّار الإيماني، ولا سـيَّما في الدراسـات ذات البعـد العقـليّ، من علم الكلام، وفلسـفة الدين، وما يتفـرَّع عنهما من قضايا حسَّاسة، يمكن أنْ تؤثِّر على البناء السليم للمجتمع الإسلاميّ في بُعْديْه النظريِّ والعمليِّ.

**والله من وراء القصد، والحمدُ لله ربِّ العالمين.**